

خليل مطران

لست أحسبني مبتكراً أو مغالياً إذا قلت إن الاحتفاء بشاعر عربي قضى نصف قرن أو يزيد وهو يشدو ، لهو حدث جليل القدر عظيم الدلالة من أحداث الأدب في العالم العربي ، بل من أحداث اليقظة العربية كلها . فقد عاصر هذا الشاعر نهضة العرب في عنفوانها ، وعب من النبع الأدبي الذي أجرى في عروقتها سورة البعث ، وعرف رجالها ، وخاض غمارها ، وشارك في ذلك كله بقلم صادق عف حفيف ، فكان لها على الأيام لساناً يتغنى أحياناً ، ويتأسى أحياناً ، وينذر أو يرشد أحياناً ؛ فهو ابن قرون متطاولة من الأدب العربي ، قد احتشدت لتتفرض انتفاضة البعث في نصف قرن ، وهو رائد قرون من آمال ومنى لا تزال في ضمير المستقبل ، ولكنها احتشدت أيضاً لتولد في نصف قرن . فهذا الصدر النحيل الذي وصفه الشاعر نفسه بقوله :

الله في صدر وَهَى وتَقَوَّست منه العظامُ
خاوٍ كجوف الغار تملؤه المخاوف والظلام

قد الطوى على طيوف الماضي ومنى المستقبل جميعاً ، فلما تفتطرت في فطرته السليمة أعارها من خياله أجنحة ومن بيانه قوة ، فاذا هي في سماء الحياة شعر خالد .

بين نبع رأس العين في بعلبك ، وأعمدة هيكل الشمس في قلعتها ، رأت نور الحياة أول ما رآته ، هذه الفطرة العبقريّة الشاعرة . وإذا لها من ذلك النبع الرقراق صفاء هو في النفس صدق سريرة ، وإذا لها من تدفقه الهادئ من جوف الأرض ومن روعة تلك الأعمدة الجبارة ، عزيمة الجبار ولكن بغير صلصلة الحديد . ثم ترعرعت هذه الفطرة بين دوالي الكرم على منكب « جارة الوادي » ، فتفتحت فيها أحلام الشباب وأزهار العقل ، فرقصت

وشدت ، ثم بلغت أشدها في بيروت بين قنن لبنان العتاق ، وصفحة البحر الذي هرم الزمان ولم يهرم . وهناك تمرست أول ما تمرست بسورة الصراع الدائر الرحي يومئذ ، بين النفس العربية المنبعثة من طوايا التراث المسترد ، المتطلعة إلى الحق والحرية ، وبين قوى الظلم والجمود التي تحاول أن تلزمها الرغام . ثم شددت رحالها إلى الغرب ، إلى باريس التي كانت يومئذ مؤسلا لفئة من أحرار العرب . فلم تكد تلقى عصا الترحال ، حتى وقفت حيرى حيال فرار خطير . ولكن حيرتها لم تطل . وما هي إلا هنيهة من الزمن ، عانت فيها عذاب الكفاح النفسى ، حتى حزمت أمرها على أن تختار . وقد كانت مخيرة فيما تأخذ وفيما تدع : أغرب كما كانت تنوى أن تفعل ، إلى حيث يكفل لها العيش الرغد والراحة بل الثراء ، أم تشرق فتعود إلى ميدان النضال ، وليس في العودة من شئ مكفول سوى شدائد النضال وآلامه ! ولعل أنصع دليل على الخير المركب في هذه الفطرة ، وعلى قوة المني التي كانت تجتاح النفس العربية في ذلك الحين ، أن فطرة الخليل اختارت أن تشرق ، مؤثرة غمرة الجهاد والكفاح ، على أفياء الثروة والراحة . وكذلك بت الفتى وهو في باريس ، وعزم أن يعود إلى مصر ، مشيحاً بوجهه عن الشق الغربى من كرة الأرض . فلم يكد يطأ أرضها ، ويحس بعبق التاريخ يجرى في عروقه مرة أخرى ، حتى انطلقت فطرته الشاعرة على سننها ، وإذا الآثار المنطوية فيها من بعلبك وزحلة وبيروت ، قد أخذت تتمرّج بها وتشد من أزرها آثار الجهاد المصرى الرانى إلى نور الحرية والكرامة ، وآثار الجهاد العربى المشوق إلى بعث يعيد عصر المأمون وهارون الرشيد ، وآثار الحضارات القديمة ، التي قامت في هذا الوادى آية تجلو أسرار التاريخ النابض بالحياة المتجددة على الدهور .

وعلى أن خليل مطران كان صحفياً مبدعاً ، في العقد التالى من سنى حياته وعلى أنه اشتغل بشؤون المال والاقتصاد والزراعة ، فان فطرة الشاعر العبرى فيه وقفت مرة أخرى ، كما وقفت في باريس من قبل ، حيال قرار خطير : أن تجعل قبلتها في الشعر أن تجارى الفحول من شعراء العربية أم تجعل قبلتها أن تتمثل خير ما جاء به الفحول . ثم أن تنطلق في آفاق الحياة الرحبية ، حتى تتفتح للشعر العربى أبواب الآداب العالمى ، يأخذ منه ويعطيه سواء

بسواء؟ وفي البيان الموجز الذى صدر به الخليل «ديوان الخليل»، قال: «عدت إليه وقد نضج الفكر واستقلت لى طريقة فى كيف ينبغي أن يكون الشعر، فشرعت أنظمه لترفيه نفسى حيث أتخلى، أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى، متابعاً عرب الجاهلية فى مجازاة الضمير على هواه... موافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب... وذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى شىء منها إلا ما فاتنى علمه... ولم أكن مبتكراً فيما صنعت؛ فقد فعل العرب فى كل زمان قبلى، مالا يقاس إليه فعلى... فأصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة — ولا أعنى منظوماتى الضعيفة — هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال معاً...» وما كان النزاع الذى دار فى نفس الخليل فى الحالىن، نزاعاً يسهل الفصل فيه. وكان الاختيار الذى أثره ووطن العزم عليه، غير مايؤثره السواد من الناس. وليس هذا بالشىء العجيب؛ فالخليل من الصفوة فى كل عصر وفى كل قبيل. والحياة منذ كانت الحياة، لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، إلا بفضل القلة المصطفاة من الأحياء التى تأبى المتابعة والمطابقة التامة، وتخرج على الكثرة التى قلما ترضى عنهما بديلاً. فتسير هذه الفئة القليلة بالحياة صعباً يستحشها ناموس كنناموس الجاذبية لا يرد، يأتيا نداءه من وراء حجب الغيب، فتبلى النداء راضية مخنارة. وهذا فى نظرى سر العظمة فى حياة الخليل وفى شعره. فقد كان فى وسعه أن يغرب وأن يثرى، ولو فعل لكان خليقاً أن ينظم شعراً حسناً، ولكنه اختار أن يشرق، فاذا حياته قد فنت فى حياة الشرق العربى، أو هى اتسعت حتى تضم حياة الشرق العربى بين جوانحها. وكان فى وسعه أن يجارى الفحول أو يحاول أن يجاريهم، ولو فعل لكان خليقاً أن يستعيم له فى بعض الأغراض قصائد أو مقاطع من قصائد تعد فى الطبقة الأولى، ولكنه اختار أن ينظم شعراً «ليس ناظمه بعبده»، على مايقول، وأن يفتح للشعر العربى باب المستقبل حتى يكون «شعر الحياة والحقيقة والخيال معاً»، وإذا هو بما قد اختار، رائد له من مجد الرواد فضل الإقدام على المجاهر يرفع الستار عن مناكبها.

ولو طلب المال فى الغرب، وأوقى ما طلب، لكان فى وسع العالم أن يسلبه ما آتاه. ولو سعى وراء المتعة فى الشرق أو فى الغرب، ونالها، لكان نيل

المتعة كفيلاً في حد ذاته باضحلالها . ولو حاول أن يجارى الفحول واستقام له ما يريد ، لما خرج عن أن يكون واحداً من عشرات أو من مئات ، يحذو حذوهم ويجرى على غرارهم . ولكنه أبى كل هذا ، وأركب النفس مركباً خشناً صعب المراس ، ولو هو لم يفعل سوى أن يحزم أمره على هذا الاختيار في كلا الحالين ، ولو هو لم تواته فطرته الشاعرة العبقريّة على آيات وروائع ، لكان حسبه فخراً أنه اختار كما اختار . فليس في وسع أحد أن يسلبه فضل ما فعل . ولذلك حين أعود إلى أوراق ديوان الخليل ، التي بليت بين يدي منذ بدأت أطلعها منذ ربع قرن أو أكثر وأقرأ فيها في قصيدة المساء :

عمرين فيك أضعت ، لو أنصفتني لم يحذرا بتأسف وبكل
عمر الفتى الفانى ، وعمر مخلص ببيان لولاك في الأحياء
فغدوت لم أنعم كذى جهل ، ولم أغنم كذى عقل ضهان بقاء

أقول : ليس هذا المهرجان الذى حجت فيه العربية إليك ، ولا هذا التكريم السامى الذى أسبغه عليك ، سوى آية واحدة من آيات البقاء التى كتبت لشعرك ، مادام فى الدنيا عرب يتلون سورة أو يترمون بقصيد . والشعر سلّم يرتقى الناس عليه من القريب إلى القصى ، ومن المدرك إلى الخفى ، ومن الحياة التى أسدل على وجهها برقع كفيف ، إلى الحياة فى جوهرها المطلق الرحب المنبسط أمام وجه الشمس . والشاعر يصنع لنا هذا السلّم من خيال يرى ما لا نرى ، وشعور يحس ما لا نحس ، وفكر يدرك الحقيقة المستترة وراء ظواهر الأشياء . وأنت تقف إلى جنب الشاعر فلا ترى مأساة الدهور فى الوودة الذابلة ، ولا صراع الحقيقة أو الظلم أو الفضيلة ، فى سيرة الرجل المسجى أو الجنين المجھض أو الشمس الغاربة ، ولا الآمال والمنى التى تموج فى صدور خلائق هى « عد الرمال » . حتى إذا نطق الشاعر رأيت بعينه ، وسمعت بأذنه ، وأدركت بعقله ، وإذا ستار من الأستار المسدلة على روائع الكون ومعجزات الحياة ، قد رفع قليلاً مشهداً يفتن الأبواب ، وألفت ضياء يدريك قليلاً من فهم الحقيقة .

شعر الخليل حافل بآيات رائعة على هذه الأغراض التى ينشدها الشعراء ، ولا تتم نعمتها العلوية إلا لكبارهم .

مختارات من شعر مطران

في الكفاح

ليس بالكفء لعيش طيب
ليت البلاد التي أخلاقها رَسبت
النار أسْوَعُ ورداً في مجال عُلَى
ولكن قوماً يذودون عن
ويُدفعهم حبُّ أوطانهم
وإن غالبهم جيوش المنايا
كلُّ من شقَّ عليه العيش حرّاً
يعلو بأخلاقها تيّار طغيان
من بارد العيش في أفياء فينان
حقيقتهم من يد المعتدى
ويجمعهم شرفُ المقصد
تغالبُ ، وإن جاهدت مُتجهِد

في الدعوة إلى اليقظة

نمنا على جهل وقد
فإذا انقضت آجالنا
وإذا بُعثنا بعدها
لا يعصم الأمم الضعيفة فطرةً
فتكون حائطها المنيع على العدى
ولم أرَ شيئاً كالفضلة ثابتاً
عاش الكرام ونحن لم
فمن الرقاد إلى العدم
فكأنها رؤيا حلم
إلا فضائلُ بالتجارب تكسب
وتكون قوتها التي لا تغلب
نَبَتْ عنه آفات البلى والمعاطب

في صور الطبيعة والنفس

يا للغروب وما به من عبرةٍ
أوليس تزعاً للنهار وصرعة
أوليس طمساً لليقين ومبعثاً
أوليس محواً للوجود إلى مدى
حتى يكونُ النورُ تجديداً لها
للمستهام ، وعبرة للرائي
للشمس بين جنازة الأضواء
للك بين غلائل الظلماء
وإبادة لمعالم الأشياء
ويكون سبب البعث عود ذكاء

وكم في فؤادي من جراح تخينة
أرى روضةً ، لكنها روضة ذوت
وأنظر من حولي مشاةً وركباً
كأنني في رؤيا يرفُّ الأسي بها
يحجَّ بها بُرداي عن أعين الناس
وأصغى وما في مسمعي غير وسواس
على مُزجَّيات من دخانٍ وأفراس
طوائف جنٍّ في مواكب أعراس

أنا الأسد الباكي أنا جبَلُ الأسي
أنا الرمسُ يمشي دامياً فوق أرماس
وكان بهمُ الصبحُ أنْ يتطلعا
وينتضُّ أزارارَ السماء ليستطعا
ويرفع ثوبَ الليل عنه ليخلعا
فلم يطو منه الذيل إلا وقد وعي
دماً طاهراً أجراه إثم فتى نذلٍ

وإلى ذلك كله كان قلم الشاعر في يد الخليل زمباراً يوقع عليه ألحان
الوفاء لمن يرحل من لداته ، حتى صار ديوان مراثيه صفحة مشرقة من تاريخ
هذه الحقبة الحافلة بالعطاء .
إلا أنني أحس أنني أظلمك أيها الخليل ، حين أقسم وأبوء وأستل من
شعرك أبياتاً من هنا ، وأبياتاً من هناك ؛ فما كان البيت في قصيدك غاية
تحدو إليها ركائبك ، ولا كان المعنى الحاصل في شعرك منفصلاً عن المعنى العام
الذي يضم الحياة كلها . ولكن ما حيلتي ! فلا بد لي من شيء كالوشور يحل
ذلك الضياء المتوهج المنبعث من فطرة شاعرة عبقرية . مازال سناها يغمر العالم
العربي منذ نصف قرن أو يزيد .
فانفحن أيها الخليل ، مد الله في عمرك ، من جديدك ، أو انشر علينا
من قديمك شعراً نسمو به فوق ذواتنا الصغيرة إلى مسابح النجوم .

« تالله ما ظلل الغمام معاقلُ
تَنبَأُ أي عليك ، ولا النجوم حصون »

فؤاد صروف